بـــــــلاغة الصورة التشبيهية في نثر الرافعي

سهيلة مفروش

جامعة باجي مختار – عنابة

الملخص :

إن وظيفة الصورة لا تنحصر في توضيح المعنى و تحقيقه فحسب ، لأن المعنى قد يتحقق بغيرها ،و إنما يتعدى ذلك إلى خلق معان خاصة غنية بالإيحاءات لتحدث أثرا و استجابة في متلقيها .و التصوير بالتشبيه مما استعان به الأدباء في تشكيل الصورة الفنية في النتاج الأدبي و أشاعوه في كتاباتهم لإجلاء المعاني و تأكيدها ، ومنهم الأديب مصطفى صادق الرافعي ،وهذا طبيعي لأنه كان في دولة البيان علما وحده ، لا يمكن أن تجد لأسلوبه نظيرا فيما عرف من أساليب البلغاء و المحدثين .ولهذا جاءت دراستي لتبحث في بلاغة الصورة التشبيهية بمختلف تجلياتها و تشكيلاتها في نثر الرافعي و لا سيما الإبداعي منه ، والوقوف على القيمة الجمالية والتأثيرية التي تحدثها هذه التشبيهات .

الكلمات الدالة : التشبيه - النثر- الرافعي – الصورة التشبيهية - القيمة الجمالية.

Abstract

The function of the image cannot be limited to the creation and explanation of meaning, because it can be conveyed by other means. The role of the image, therefore, is to create different set of meanings full of connotations, having an effect on the receiver, through their representation by means of the process of comparison, used by writers in order to create a certain artistic image in their literary production.

These writers have largely used those images in their writings, in order to clarify meaning and confirm the message, such as "Mustafa Sadiq Al-Rafi'i" who excelled by his stylistic singularity, compared to contemporary rhetoricians.

Therefore, my study tries to explore the field of aesthetic figurative images in all their expression and creation within the prose of Al-Rafi'i, including their creative components, by focusing on their aesthetic value, and their effect on the receiver, highlighting the text of Al-Rafi'i's uniqueness.

Keywords :

Comparison - Prose - Al Rafi'i - Figurative Image - - aesthetic value

المقدمة :

تعد الصورة الفنية مقوما أساسيا من مقومات الخطاب الأدبي ، تعبر عن طريقة خاصة في التفاعل مع المدركات الحسية و المجردة ، و تتشكل بحسب الرؤى التي يصدر عنها المبدع و بحسب موقفه الذاتي و طريقة تفاعله مع العالم الحسي و المعنوي .[1]

و تحتل الصورة البلاغية بدورها مكانة هامة في الدراسات الأدبية و النقدية و اللغوية لأن الصورة جوهر الأدب و بؤرته الفنية و الجمالية ، فعبد القاهر الجـــورجاني يقرن الأدب بالتصوير فيقول " ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطـق ، بل أن تناسقت دلالاتها و تلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضـاه العقل ، و كيف يتصور أن يقصد إلى توالي الألفاظ في النطق بعد أن ثبت أنه نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ، و أنه نظير الصياغة و التحبير و النقش و كل ما يقصد به التصوير."[2]

فإذا كانت مادة الأدب هي ألفاظ اللغة و أنماطها التعبيرية فإن فنيته إنما تتمثل في استثمار إمكانات تلك المادة ، و توظيفها في خلق صورة فنية تجسد تجربة الأديب ، و توحي بأعمق أغوارها و تخومها في نفسه ، و أدق خلجاتها في وجدانه .[3]

1- في مفهوم الصورة

ليس من الهين ضبط مصطلح " صورة " ووضع تعريف جامع مانع له ، فهذا لا شك أنه ضرب من المستحيل . فيرى "أحمد مطلوب" أن مصطلح الصورة قد تهيأ له أن يعود إلى الدراسات النقدية بعد اتصال العرب بالغرب في القرن 20، و بعد أن أخذوا يدرسون التراث العربي في ضوء المناهج الحديثة ، و اختلفوا في فهم الصورة لاختلاف المنابع التي استقوا منها ، وتعدد المذاهب الأدبية و النقدية التي لم تتفق في تحديدها و معناها .[4] وقد برزت عدة مصطلحات في ميدان النقد و البلاغة منها : الصورة البلاغية ، الصورة الفنية ، الصورة الشعرية ، الصورة الأدبية ، الصورة الذهنية ، الصورة البيانية .

و الصورة في **اللغة العربية** هي الشكل. و التمثال المجسم وفي التنزيل العزيز: الذي خلقك فسواك فعدلك ،في أي صورة ما شاء ركبك "[5].. كما تستعمل بمعنى النوع و الصفة. و صورة الشيء ماهيته المجردة و خياله في الذهن أو العقل .[6]

و ينطلق ابن منظور في تحديده ل "الصورة " من أحد أسماء الله الحسنى« (المصوِر) و هو الذي صور جميع الموجودات و رتبها فأعطى كل شيء منها صورة خاصة و هيئة مفردة تتميز بها على اختلافها و كثرتها و صور جمع صورة،و صوّره الله في صورة حسنة فتصور، وتصَوّرت الشيء توهمت صورته فتصور لي ، و التصاوير: التماثيل ، ورجل صيّر شيّر: أي حسن الصورة و الشارة

.. كما أن الصورة يراد بها الوجه ، اذ جاء في حديث ابن مقرن : (أما علمت أن الصورة محرمة ؟) : و قصد تحريم اللطم على الوجه .[7]

2-الصورة كمصطلح نقدي :

الصورة مصطلح نقدي عرفه القدماء و المحدثون و لعل الجاحظ أقدم من أشار إليه حين عد " الشعر صناعة و ضربا من النسج و جنسا من التصوير ".[8] و كأنه أراد بكلمة التصوير هنا العملية الذهنية التي تصنع الشعر و تقدم المعنى بطريقة حسية . فالشعر عنده جنس من الفنون التصويرية كالرسم و النقش و غيرها من الفنون الحسية ، و مقتضى هذا أن التصوير في الشعر يشبه التصوير في الرسم وان اختلفت الأدوات المستخدمة في كل منهما ، فالرسام يصور باللون ، و الشاعر يصور بالكلمة .[9]

و اتضح مفهوم الصورة أكثر في القرن 5 هـ عند أبي القاهر الجورجاني الذي يرى أن (الصورة إنما هو تمثيل و قياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا ، ..... كذلك كان الأمر في المصنوعات ، فكان تبين خاتم من خاتم و سوار من سوار بذلك . ثم وجدنا بين المعنى في أحد البيتين وبينه في الآخر بينونة في عقولنا و فرقا عبرنا عن ذلك الفرق وتلك البينونة بأن قلنا للمعنى في هذا صورة غير صورته في ذلك).[10]

فالصورة عند عبد القاهر الجورجاني متأتية من الخلاف بين بيتين من الشعر مشتركين في معنى واحد ، فلكل شاعر أسلوبه و طريقته في عرض معانيه ،و إن البيتين من الشعر مهما بلغ اتحادهما في المعنى ، لابد من وجود خلاف بينهما في الصياغة .

إذن فالصورة حسب تحديده هي الوسيلة لتشكيل المادة و صوغها شأنها في ذلك شأن غيرها من الصناعات و براعة الصائغ تظهر في نقل المعنى و إظهاره في صورة جميلة دون تغيير في المادة الموضوعة : المعنى أو تجاوز صلاتها أو علائقها الوضعية المألوفة .[11]

و من جهته يرى الدكتور جابر عصفور أن الصورة " طريقة خاصة من طرق التعبير أو وجه من أوجه الدلالة ، تنحصر أهميتها فيما تحدثه في معنى من المعاني من خصوصية و تأثير . لكن أيا كانت هذه الخصوصية أو ذاك التأثير،فإن الصورة لن تغير من طبيعة المعنى في ذاته إنها لا تغير إلا من طريقة عرضه ، و كيفية تقديمه."[12] و هي بهذا المعنى ليست من قبيل الزينة الطارئة على المعنى الأصلي ؛ فكثيرا ما يستعملها الشاعر ليعبر عن حالات لا يمكن تجسيدها بغير الصورة . وعلى هذا فالتعبير بالصورة خاصية شعرية ، و لكنها ليست خاصة بالشعر فحسب فقد آثرها التعبير القرآني، و الحديث النبوي كثيرا ، واعتمد عليها المثل كما فضلتها الحكمة .[13]

و يتوسع عبد القادر القط في تعريف الصورة قائلا :« هي الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ و العبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص ليعبر عن جانب من جوانب التجربة

الشعرية الكاملة في القصيدة مستخدما طاقات اللغة و إمكاناتها في الدلالة و التركيب و الإيقاع و الحقيقة و المجاز و الترادف و التضاد و المقابلة و التجانس و غيرها من وسائل التعبير الفني .»[14] فالصورة عند القط هي الشكل الذي تتخذه الألفاظ و يتصل ذلك ببناء العبارة والمعنى ، كما أنها لا تقتصر على الصور البيانية ، و لكنها الشكل الذي يحدث في المعنى جذبا للنفس فتنفعل مع هذه الصورة أو تلك .[15]

و غالبا ما تأتي الصورة الفنية في التراث الأدبي مرادفة لما يدخل تحت علم البيان من تشبيه و استعارة ، وكناية وهي من أساليب التصوير الفني التي يمتزج فيها الخيال مع الوجدان . فالخيال هو وسيلة إعادة تشكيل العالم و اكتشاف العلاقات الكامنة بين الظواهر ، و هو أيضا وسيلة للجمع بين الصور المتباعدة أو حتى المتناقضة و المتضادة .[16] و كلما كانت الصورة أكثر تباعدا كلما كانت أكثر فنية و طرافة .

- و قد امتاز نثر الرافعي بالحضور الواضح و المميز للصورة البيانية فيه مما يعكس خصوبة خياله و تمكنه من اللغة بشكل كبير كما يوحي ببراعة تصويره . فهو الأديب الشاعر بقلبه و روحه الغيور على دينه و تراث أمته المفارق لأدباء عصره ، الصادق في التعبير عن مكنون صدره . إنه الحكمة في أجمل بيان .

- **و الرافعي هو** مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي[17]. من مواليد يناير عام 1880 في " بهتيم " من قرى محافظة "القليوبية ".[18] وهو سوري الأصل أبا و أما. من أسرة اشتغلت بالقضاء الشرعي . ولم يدخل الرافعي المدرسة إلا بعدما جاوز العاشرة بسنة أو اثنتين ،لم ينل في حياته إلا الشهادة الابتدائية وسنه يومئذ 17سنة أو دون ذلك بقليل [19]، وفي تلك السنة التي نال فيها الشهادة الابتدائية أصابته حمى تركت وقرا بإحدى أذنيه ، ولم ينفع العلاج على كثرة التردد إلى الأطباء وانتقل الوقر إلى أذنه الثانية ، فما أن تم الثلاثين من عمره حتى صار أصما لا يسمع شيئا مما حوله وانقطع عن دنيا الناس .[20] انكب على المطالعة فجمع بين كتب الفقه و الدين و العربية .تزوج في سن 24من امرأة مصرية ، وقد كان الرافعي عزيز النفس ،أبي الروح ، معتزا بنفسه و بأدبه إلى حد الغرور ، كما عرف بنقذه اللاذع لخصومه خصوصا العقاد و طه حسين ، توفي سنة 1937.[21]

3-بلاغة الصورة التشبيهية في أدب الرافعي:

التشبيه باب من أبواب البلاغة الكبرى الذي أثنى عليه النقاد قديما و حديثا ، لما له من أثر عظيم في بناء الصورة الأدبية ، و رسم اللوحة الفنية الرائعة المؤثرة في العواطف و المشاعر الإنسانية . و يرى البلاغيون أن قيمة الإبداع الفني في النص الأدبي تكمن في حسن التشبيه وجودته و العلاقة

بين المشبه و المشبه به ، و تصوير الأشياء المعنوية بإطار حسي ، فالتشبيه يقرب بين الأشياء الغامضة من خلال ربطها بأشياء محسوسة .

و التشبيه في أساسه اللغوي هو التمثيل . وهو مصدر من مادة " شبه " . يقال شبهت هذا الشيء بهذا الشيء ، كما يقال مثلته به .[22] أما اصطلاحا : فيعد المبرد (285 ه) من أقدم من تناول التشبيه و وضع تحديدا له فيقول :" واعلم إن للتشبيه حدا ، فالأشياء تتشابه من وجوه ، و تتباين من وجوه ، و إنما ينظر إلى التشبيه من حيث وقع ".[23] فحد التشبيه عند المبرد مبعثه التفريق بين الشيء نفسه و التشبيه من جهات أخرى . فالتشبيه عنده يقع إذا تشابه الشيئين و تباين من وجه .

و يضيف السكاكي (626ه) في تحديده طرفي التشبيه ووجه الشبه فيقول :إن التشبيه مستدع طرفين :مشبها و مشبها به ، واشتراكا بينهما في وجه ، وافتراقا من آخر أن يشتركا في الحقيقة و يختلفا في الصفة ، أو العكس " [24] . و هذا الاشتراك وذلك الافتراق ، أن يشبه شيء بشيء جملة ، و لكن المشابهة لا تصدق بأكثر من جانب ، و قد تختلف من جوانب أخرى كالاختلاف في حقيقة الشيء مثلا ، و الاتفاق في صفته.[25] وقد لخص الخطيب القزويني (739ه) تعريف التشبيه بقوله هو "دلالة على مشاركة أمر لآخر في المعنى " .[26] أي وجود تشابه بين أمرين يشتركان في صفة أو مجموعة من الصفات .

وغاية التشبيه هو عرض الصورة بأفضل ما يمكن أن يتصوره المستمع . وقديما قالوا " ما راء كمن سمع " لأن الرؤية تحقق الصورة المحسوسة والمنظورة بينما السماع فلا يحقق تلك الرؤية ؛لأنه ينقل المجرد إلى المحسوس و الذهني إلى الحسي ".[27]

و تتأتى قيمة التشبيه الفنية بقدر خفاء العلاقة بين طرفيه و بعدها عن مجال الحس . وبقدر حاجة تلك العلاقة إلى ذهن ثاقب و بصيرة نافذة لإدراكها و الكشف عنها ؛ و قد عبر عبد القاهر الجورجاني عن المبدإ الذي تتحدد في ضوئه قيمة التشبيه فقال : " كل شبه رجع إلى وصف أو صورة أو هيئة من شأنها أن ترى و تبصر أبدا فالتشبيه المعقود عليها نازل مبتذل ، و ما كان بالضد من هذا ، و في الغاية القصوى في مخالفته فالتشبيه المردود إليه غريب نادر بديع "[28]

- و بالعودة إلى مصطفى صادق الرافعي و أعماله الفنية ، نجد أنه تميز عن كتاب عصره بكثرة استخدام الصورة التشبيهية .فتعددت صورها من تشبيهات مفردة إلى تشبيهات مركبة، وقد شملت أعماله الإبداعية موضوعات متنوعة أكثر فيها من ذكر المرأة فتناولها من جميع نواحيها ، وتفنن في وصفها و إبراز محاسنها ، وبذلك فاق كل الذين وصفوا المرأة ، سواء منهم الكتاب أو الشعراء ، وسواء منهم من وصفها بأوصاف حسية أو معنوية . وكأن الرافعي أراد أن يجمع كل تلك الصفات التي قالها الأولون في المرأة ، ويضيف إليها من فنه و أدبه ومشاعره مايحس به، و يراه صالحا أن يضيفه .[29]

ومن أمثلة ذلك قوله في(**رسائل الأحزان**) و هو يتحدث عن المرأة و يصورها تصويرا قدسيا : **"فلما انتهيت إلى المرآة خيل إلي أني أرى ملكا من الملائكة قد تمثل في هيئتها و أقبل يمشي في سحابة قاتمة من الضوء أو أن يد الله في لمح النظرة قد رسمت هذا الجمال على تلك الصحيفة "** [30]

في هذا التشبيه **المفرد** بلغت الحبيبة عند الرافعي أعلى المراتب، حيث يشبهها بملك من الملائكة جاء يمشي ولكن في سحابة قاتمة ليس من الظلمة بل من الضوء المنبعث من المصباح الذي أمامه .لقد أتى بما هو غير منتظر ليصف الحبيبة في أجلى صورها من الجمال و الطهر ، و كأنها في ذلك ملَك تمشي على ضوء ذلك المصباح . ووجه الشبه بينهما هو الرقة . وقد انعكس جمال هذه الصورة التشبيهية على كل العبارة وجسدت لنا هذا المعنى الجميل الذي كان من نسج خيال الرافعي .حيث يخبرنا فيما بعد أن هذا كان خيالا فقط في الصحيفة التي كان يكتب وليس حقيقة .فيقول : " أو أن يد الله في لمح النظرة قد رسمت هذا الجمال على هذه الصحيفة ".

ويواصل كلامه عن الحبيبة في (**حديث القمر**) فيقول واصفا إياها : **"فمن أحب و رأى حبيبته ، من فرط إجلاله إياها ، كأنها خيال ملك يتمثل له في حلم من أحلام الجنة ، ورأى في عينيها صفاء الشريعة السماوية ، وفي خديها توقد الفكر الإلهي العظيم ، و على شفتيها احمرار الشفق الذي يخيل للعاشق دائما أن شمس روحه تكاد تمسي ...ورآها في جملة الجمال تمثال الفن الإلهي الخالد .....،فأطاعها كأنها إرادته واستند إليها كأنها قوته ، و عاش بها كأنها روحه - فذلك هو الذي يشعر بحقيقة الحب ويفهم معناه السماوي ".**[31]

فالرافعي محب ، ومعاناة الهوى تستبطن ذاته فتفجر على لسانه ينبوع التشبيهات الخارقة التي لا تنتهي ، فنراه في هذه العبارة يسترسل في وصف حبيبته بعدة تشبيهات ،إذ شبهها في البداية بخيال الملك وذلك لعظيم شأنها عنده، مستخدما في ذلك أداة التشبيه "كأن " لتؤكد التشبيه و تقويه و كأن المشبه هو نفسه المشبه به .فجعل هذا الملك ليس صعب الوصول كما هو معروف بل جعله يتمثل له في حلم من أحلام الجنة .ثم يواصل وصفه للحبيبة فشبه عينيها بصفاء الشريعة السماوية ووجه الشبه هنا هو الوضوح ، ثم في صورة أخرى جمع بين المحسوس و المعقول فشبه خديها بتوقد الفكر الإلهي ليس بجامع الحمرة فحسب بل للإجلال و العظمة ،ثم يشبه حمرة شفتيها بحمرة الشفق.و هنا انزياح أسلوبي لأنه من المألوف تشبيه حمرة الخدين بالورد لا بالشفق .و إنما جاء بهذه الصورة للتعبير عن حالة الرافعي الوجدانية وهي الخوف بأن هذا العشق سيزول و تمضي معه روحه كما تمضي الشمس و هي تؤول إلى الغروب ....وفي كل هذه التشبيهات حذف الرافعي أداة التشبيه و وجه الشبه ليبين مدى اشتراك الطرفين و اتحادهما .

ويواصل الرافعي تشبيهاته لحبيبته فرآها في جمالها تمثال الفن الإلهي؛ فجمالها جمال رباني لا أحد يمكنه أن يبدع في تصويره على هذا النحو إلا من أوتي قدرة إلهية عظيمة. كما يبين لنا التأثير الكبير لهذا الحب على حياة الرجل و استسلامه للحبيبة ؛ فشبه طاعته إياها بإرادته ووجه الشبه هنا هو القوة .كما أن وجوده في الحياة مقرونا بها فيشبهها بروحه التي لا تنفصل عنه . ووجه الشبه هنا هو الالتحام الشديد و الملازمة في كل شيء فمتى فارقته فارقته روحه . و كل هذه الصور تندرج ضمن تشبيهاته العقلية.

و لم يتوقف الرافعي في تشبيهاته عند المرأة فحسب ؛ فكان يستلهم موضوعات كتاباته من الحياة و من الواقع الذي يعيشه فهو حين يكتب لا يكتب من خياله و إنما يكتب عن واقع يحياه ويعرفه حق المعرفة ،فصور حالة الفقراء و البائسين و عبر عن آلامهم . فهاهو في(**السحاب الأحمر)** يتحدث عن السجين وهو في قفص الاتهام واصفا حالة أمه المفجوعة وهي تختزن مشاعر مؤلمة محزنة، مصورا شقاءها أروع تصوير فيقول : " **رأيت أمه المفجوعة جالسة لاتحملها رجلاها ، وعلى صدرها ذلك الرضيع تضمه كأنه قطعة من قلبها رجعت إليه ، و تشد عليه بيديها شدة الجزع و الحنان ، كما لو كانت تحسبه صلة بينها وبين ابنها ، تنقل هذه الشدة بعينها إليه كما تنقل الكهرباء حركة المتحرك ، وقد انطلقت دموعها ، وفي كل نظرة إلى نكبة وحيدها مادة جديدة للبكاء ! .وهي تنحني على قلبها حتى يداني وجهها الأرض ، كأنها شعرت به ينكسر فمالت ليلتئم صدع منه على صدع ثم تعود فتعتدل فيكاد ينشق قلبها فتضغطه بانحناءة أخرى ؛ وهي في كل ذلك مرسلة عينيها تمطر مطرا ؛ وكانت حين تنكف دمعها ، وتنحيه عن خديها ، يتساقط من فروج أصابعها كأنه عدد أيام شقائها !"**[32]

يصور الرافعي حالة أم السجين فشبه دموعها بعدد أيام شقائها حيث كانت نفسها موطنا للأحزان و الهموم وبقيت تتجرع المرارة و الألم طوال حياتها ، ووجه الشبه بينهما هو الكثرة .وهو تشبيه المعقول بالمحسوس . وفي إلحاق المشبه بالمشبه به ما يدل على أن هذه المرأة شقية منذ أول حياتها .فاستخدم الرافعي أداة التشبيه "كأن " التي تفيد القوة والمبالغة في إلحاق المشبه بالمشبه به ، وكذلك لتقوية التشبيه .

ومن الصور التشبيهية عند الرافعي صورة **التشبيه المقلوب** وهو جعل المشبه مشبها به بادعاء أن وجه الشبه فيه أقوى و أظهر.[33] ويسميه ابن جني في الخصائص "غلبة الفروع على الأصول " يقول :" هذا فصل من فصول العربية طريف ،تجده في معاني العرب ، كما تجده في معاني الأعراب .ولا تكاد تجد شيئا من ذلك إلا غرضه المبالغة " .[34]

ومن أمثلته ماجاء في (**أوراق الورد**) :" **ولو ولد النور لكان وجهك الجميل المشرق ، و لو ولدت الكهرباء التي هي سر النور لكانت أسرار عينيك ، و لو تولدت القوة التي هي سر الكهرباء لكانت فتنة حبك ، وكل المعاني التي في نفسي لا تتخذ صورها إلا منك لأنك بجملتك تمثال الشعر."**[35]

فالرافعي هنا يشبه النور بوجه الحبيبة وهو تشبيه مقلوب لأن العادة في عرف الأدباء و الشعراء أن يشبه وجه الحبيبة بالنور لإشراقه و ضيائه لكن الرافعي عدل عن المألوف وقلب التشبيه للمبالغة ،بادعاء أن وجه الشبه أقوى في وجه الحبيبة .على النور. ثم يشبه الكهرباء بأسرار عينيها لشدة تأثيرها .فلعيني حبيبته سحر ووقع شديد في نفس من يراها كوقع الكهرباء الشديد على الإنسان .و هنا أيضا تشبيه مقلوب فكان من المفروض أن يشبه أسرار عينيها بالكهرباء لا العكس لأنها الأقوى في التأثير والمبالغة . كما شبه فتنة حبها بالقوة وقلب التشبيه لأجل المبالغة.

ويواصل الرافعي وصف حبيبته ويبدع في ذلك من خلال تشبيهاته التي تنم عن قدرته الفنية ، فيقول في موضع آخر من الكتاب : " **من شبهك بوجهها أزهر الضوء فيك ما يزهر اللحم و الدم فيها ، فتكاد أشعتك تقطف منها القبلة ، و يكاد جوك يساقط من نواحيه تنهدات خافتة ، وتكاد تكون مثلها ، يا قمر، مخلوقا من الزهر و الندى و أنفاس الفجر,**"[36]

فالقمر جميل كوجه الحبيبة وقد وصلته قرابة الجمال بوجهها من حيث كونه خلق من الزهر و الندى و أنفاس الفجر .فهناك مبالغة في وصف الحبيبة ، وليس أدل على هذه المبالغة من حذف أداة التشبيه .

و يستعين الرافعي في صوره التشبيهية للحبيبة بالطبيعة وعناصرها فيقول في (حديث القمر): "**ذلك ابتسام الطبيعة يا لؤلؤة ثغرها التي يسمونها القمر ، وذلك جمالها الفتان الذي خلقت المرأة لتصفه و تدل عليه فلها بها الناس و سحرت أعينهم حتى لم ينظروا إليه و إليها إلا على أنه مخلوق ليصفها و يدل عليها ؛ فتصغر الطبيعة ما تصغر عند بعضهم و تكبر ما تكبر عند الآخرين ، ولا تكون في الحالين أصغر ولا أكبر من امرأة جميلة ."**[37].

إن جمال الحبيبة عند الرافعي لا يضاهيه جمال و سعادته بها لا توصف ، فهو يرى في ابتسامها ابتسام الطبيعة بأكملها و قد شبه القمر وهو عنصر من هذه الطبيعة بتلألؤ ثغرها الباسم و (هو المشبه به)، فالمعهود هو تشبيه الشيء بالقمر للدلالة على جماله لا العكس وهنا تشبيه مقلوب. فالرافعي أتى بهذه الصورة ليبين أن المشبه وهو ثغر الحبيبة في تبسمها أقوى في الدلالة على الإشراق من القمر وذلك على سبيل المبالغة .

*** التشبيه البليغ :**

حفلت أعمال الرافعي الإبداعية بالتشبيهات البليغة ؛ وهي أعلى مراتب التشبيه في البلاغة و القوة ، ففيه تحذف الأداة ووجه الشبه ما يؤدي إلى الإيجاز الذي يجعل نفس السامع تذهب كل مذهب ، و يوحي لها بصور شتى من وجوه التشبيه .[38]

ومن صور التشبيه البليغ عند الرافعي ما قاله في(**رسائل الأحزان) : " أنا وحدي أعرف ما أندمج عليه وما يكنه قلبي المتألم الذي أصبح يضطرب اضطراب الورقة اليابسة في شجرتها نافرة تتململ إن عفت عنها نسمة لا تعف عنها النسمات كلها ."** [39]

يبسط الرافعي من خلال هذه العبارة بعضا من خواطره فهو الوحيد الذي يعلم ما ينطوي عليه قلبه المتألم المضطرب الذي يتقلب حزنا ووجعا كتقلب الورقة اليابسة في شجرتها التي تتقلب جراء النسمات المتتالية . وقد أحسن الرافعي اختيار المشبه به وهي الورقة االيابسة ليصف حالة قلبه.لجامع بينهما وهو التقلب و الاضطراب . فأبدع في صورته التشبيهية من باب تصوير المعقول بالمحسوس ، كما حذف " الأداة " ليؤكد أن المشبه هو عينه المشبه به كما أن في حذف " وجه الشبه " ما يشير إلى اشتراك القلب المتألم و الورقة اليابسة بالكثير من الصفات . (الاضطراب ، الألم) .

ويقول عن الحب في (**السحاب الأحمر**) : " **الحب بعض الإيمان: وكما أن الطريق إلى الجنة من الإيمان بكل قوى النفس ، فإن الطريق إلى الحب من قوة لا تنقص عن الإيمان إلا قليلا ؛ و الخطوة التي تقطع مسافة قصيرة إلى القلب ، تقطع مسافة طويلة إلى السماء "! .**[40]

فطريق الوصول إلى الحب صعب : كالطريق إلى الجنة من خلال الإيمان بقدرة النفس على بلوغها ببذل الطاعات و اجتناب المعاصي ، فإن كانت الخطوة إلى الجنة تقطع مسافة طويلة فما أعظم الخطوة إلى القلب رغم قصر المسافة .و الجامع بينهما هو المشقة في بلوغ ذلك .

ومن نماذج التشبيه البليغ كذلك في (**أوراق الورد**) قوله :

تالله لو جددوا للبدر تسمية لأعطي اسمك يا من تعشق المقل ،

كلاكما الحسن فتانا بصورته وزدت أنك أنت الحب و الغزل [41]

في هذه الصورة التشبيهية يصف لنا الرافعي حبيبته بالحسن من حيث البهاء و الجمال ، كأن حقيقة الجمال الذي يغمر العالم يراه مستقرا فيها ، بل و يضاف إلى ذلك كله أنها هي الحب وهي الغزل . فهذه سلسلة تشبيهات بليغة ، حذفت فيها أداة الشبه لتقوية المعنى في المشبه .وهذا طبيعي فالموصوف حبيبته ، وهي بالنسبة إلية تتنزل منزلة الملائكة ، فهي الأكثر نورا و الأكثر حسنا و بهاء و الأكثر إشراقا .

ومازال يصور شغفه بالمحبوبة و أثر حبها في نفسه فيقول في نفس الكتاب : " **بل أنا كوكب عطر من يدها الجميلة في فلك زهري غض ، ثم انتثرت من فلكي و ذبلت لأني انتثرت من فلكي .....!** ويقول أيضا :" **وكنت تمثال النشوة و الفرح ، فلما رفت بي على خذها رفتين ، صرت تمثال السكر و العربدة ؛ و أطرحتني لأني تمثال السكر و العربدة ."**[42]. وفي موضع آخر من (**رسائل الأحزان**) يقول: "**لقد وضعك حسنك في طريقي موضع البدر الذي يرى ويحب ، و لا تناله يد و لا تعلق بنوره ظلمة نفس ، لكن كبرياءك نصبتك نصبة الجبل الشامخ ، كأنه ما خلق ذلك الخلق المنتثر الوعر إلا لتدق به قلوب المصعدين فيه ، و تهتز أجراسها اهتزازا عنيفا متصلا في حبال الأنفاس و الزفرات ".**[43]

فهذه الأوصاف تعكس مهارة الرافعي الدقيقة في التصوير كما تحيلنا إلى نفسه المحبة للجمال ، وسعيه إلى نقل أحاسيسه و مشاعره الجياشة .

***التشبيه التمثيلي :**

وهو ما تجده لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر حتى أن التشبيه كلما كان أوغل في كونه عقليا محضا كانت الحاجة إلى الجملة أكثر. ألا ترى إلى نحو قوله عز وجل (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس و الأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفتها و ازينت و ظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس) كيف كثرت الجمل فيه حتى إنك ترى في هذه الآية عشر جمل إذا فصلت .وهي إن كان قد دخل بعضها في بعض حتى كأنها جملة واحدة فإن ذلك لا يمنع من أن تكون صورة الجمل معنا حاصلة تشير إليها واحدة واحدة . ثم إن الشبه منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض و إفراد شطر من شطر حتى أنك لوحذفت منها جملة واحدة من أي موضع كان أخل ذلك بالمغزى .[44]

و من أمثلة التشبيه التمثيلي في نثر الرافعي قوله في(**السحاب الأحمر**) : " **وليس بالحب إلا ما عرفته ارتقاء نفسيا ، تعلو فيه الروح بين سماويين من البشرية ، فتلوح منهما كالمصباح بين مرآتين :يكون واحدا وترى منه العين ثلاثة مصابيح ؛ فكأن الحب هو تعدد الروح في نفسها و في محبوبها .** [45]حيث شبه الحب في سموه وارتقائه النفسي بين روحين يخرجان من أعلى السماوت البشرية كمصباح بين مرآتين ؛ هو واحد لكنه يرى للعين أنه ثلاثة . صورته هو أي(الحب) ،وصورة المحب، و صورة الحبيب، ووجه الشبه هنا الالتئام الروحي في الحب . وتعدده في نفوسهم .

و قد جاء الرافعي في هذه الصورة بكل أركان التشبيه ليعمل على توضيح الدلالة كما استعان بأدا ة التشبيه "كأن " التي تفيد قوة التشبيه . وتؤكد المعنى بتجسيمه ، و تزيده وضوحا .

و في صورة تشبيهية تمثيلية رائعة ينقل لنا حالة العاشق المستكين أمام محبوبه في(**رسائل الأحزان**) في قوله : "**ومهما تكن من جبل شامخ فإنك تهافت تحت أشعة عينيها كما تتدحرج جبال الثلج في القطب إذا زاحها عما حولها شعاع رقيق من أشعة الشمس تتنهد فيه نسمة ضعيفة .**"[46]

فقد صور الرافعي صورة الحبيب الذي مهما بلغت قوته فإنه سوف يضعف أما عينيها تماما كجبل الثلج الشامخ الذي يبدأ في الانهيار بمجرد بزوغ أولى أشعة الشمس . فمما جعل التشبيه واضحا وجليا وجود المقاربة بين الصورتين (صورة المشبه و المشبه به) ، فالرافعي كان دقيقا في اختيار عناصر تشبيهاته ، فجبل الثلج الشامخ وهو يذوب من أشعة الشمس يشبه حالة المحب وهو يذوب من سحر عيني محبوبته و أسرارها الجميلة .ووجه الشبه هنا هو الضعف و الاستسلام .

أما في" **حديث القمر** " فقد وردت كذلك جملة من تشبيهات التمثيل نذكر منها قوله :

" ذاك ،أيها القمر ، و إني لأحس كذلك أن قلبي يطرح على ساحل أشعتك بقايا ما فيه من الآمال المحطمة التي طال مثواها في لجج الهم كبقايا الغرقى في أعماق اليم ؛ وليت شعري ما عسى تُجدي هذه البقايا ؟" [47] لقد شبه لنا الرافعي حالة قلبه وما وصلت إليه من ألم وانكسار و آمال محطمة ، من الحب و قهر الحبيب ، ببقايا الغرقى في أعماق البحر وهم في حالة يرثى لها ، فهل يصبح لهذه البقايا جدوى بعد ذلك ؟ ووجه الشبه بينهما هو التلاشي و الضياع . فالصورة التشبيهية هنا دقيقة معبرة اختار فيها بقايا الغرقى وما توحي إليه من يأس في العودة إلى الحياة وإلى حالتهم الأولى، وشبه بها قلب الحبيب المتحطم الذي أنهكته الآلام و صار لا جدوى منه.

أما في "**أوراق الورد** " فقد أكثر الرافعي من صور التشبيه التمثيلي فنجده في قوله : "

أتذكر و قد لمست فكري بضوئك لمسة نور فأظهرتها لي كأنها في جمالها الطاهر شكل ديني وضع ليكون مثالا لعبادة القلب الإنساني ؟ [48]

وفي موضع آخر قدم أداة التشبيه لأهميتها في إنتاج الدلالة و توكيد المعنى ففي هذا التصوير هناك تباعد بين طرفي الصورة ما يصعب على الخيال إدراكه وفهم خصوصيته بسهولة و يسر ولهذا فيحتاج إلى إمعان الفكر لإدراك مغزى الصورة : **" أترى يا قلبي كأن هذا القمر في الحب (تليسكوب) يكبر نوره العواطف حين تبث في ضوئه ، فلا يطلع على حبيبين أبدا إلا كبر أحدهما في عين الآخر** [49] .

الخاتمة :

لقد كانت الصورة التشبيهية من الأدوات الفنية الهامة التي استعان بها مصطفى صادق الرافعي لنقل تجربته و إبراز المعنى في أحلى صورة و أمتعها . وقد تعدد نمط التشبيه بتعدد تشكيلاته و تنوع دلالاته حيث أكثر من استخدام التشبيهات المركبة التمثيلية و البليغة التي كشفت قدرته الفائقة على التوغل بحسه الفريد في قلب الطبيعة وارتياد عالم الإنسان بكل آلامه و آماله .وكانت غايته من حشد هذه الصور تحميلها الدلالات النفسية و الشعورية الغائرة في أعماق هذه الذات الإنسانية .

الهوامش و الإحالات :

[1] - لخميسي شرفي ، جمالية الصورة البلاغية في ديوان مقام البوح لعبد الله العشي ، مجلة قراءات ، جامعة بسكرة ، عدد 2011،ص1

[2] - الجورجاني ، دلائل الإعجاز ، تع محمد رشيد رضا ،دار الكتب العلمية ، لبنان ط1 1988، ص 41

[3] - د حسن طبل ، الصورة البيانية في الموروث البلاغي ، مكتبة الإيمان بالمنصورة ، ط،20051 ص 14

[4] - كامل حسن البصير ، بناء الصورة الفنية في البيان العربي ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، العراق ، دط، 1987 ، ص 24

[5] - سورة الانفطار ، الآية 8

[6]- مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، مكتبة الشروق الدولية ، ، مج1 ط4 ،2004 مادة (صور) ، ص 528

[7]- ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر، بيروت : ط1 ،2000،ص304 مادة صور

[8] - الجاحظ ، الحيوان ، تح عبد السلام هارون ، ط2 ، 1965 ،ج 3 ، ص 132

[9] - د زيد بن محمد بن غانم الجهني ، الصورة الفنية في المفضليات ، الجامعة الإسلامية، السعودية ، ط14251 هـ ص42

[10] - الجورجاني ، دلائل الإعجاز، ص 389

[11]- د .بشرى موسى صالح ، الصورة الشعرية في النقد العربي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت، لبنان ، ط19941، ص 22

[12]- د، جابر أحمد عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي ، المركز الثقافي الغربي ، بيروت ط 1992،3،ص392

[13]- د .محمد حسن عبد الله ، الصورة و البناء الشعري ، دار المعارف ، القاهرة ، د ط ، دت ، ص 17

[14]- عبد القادر القط ، الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، مكتبة الشباب ،1988 ص 391

[15]- د جمعة محمد محمود شيخ روحه ، الصورة الفنية في مختارات البارودي (ملامحها و تطورها) ، مكتبة بستان المعرفة ، ط، 2008 ،ص4

[16]- د جابر عصفور ، المرجع السابق ، ص 309

[17]- خير الدين الزركلي ، معجم الأعلام ، دار العلم للملايين ، لبنان، ط15 ،2002 ، ج7 ص235

[18] - محمد سعيد العريان ، حياة الرافعي ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، ط3، 1955 ، ص 27

[19] - محمد سعيد العريان ، حياة الرافعي ، ص 28

[20] - المرجع نفسه ، ص 29

[21] - المرجع نفسه ، ص 148

[22] - ابن منظور ، لسان العرب ، ص17 مادة شبه

[23] - عبد الفتاح لاشين ،البيان في ضوء أساليب القرآن ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1998دط،ص29

[24] - السكاكي ، مفتاح العلوم ،دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1987،2،ص332

[25] - محمد حسين علي الصغير، أصول البيان العربي في ضوء القرآن الكريم ،دار المؤرخ العربي ، لبنان ، ط1 ،1999،ص88

[26] - القزويني (الخطيب)، الإيضاح في علوم البلاغة ، تح عبد الحميد هنداوي ،مؤسسة المختار للنشر و للتوزيع ، القاهرة ط،3،2007، ص188

[27] -د.خلدون سعيد صبح ،البنية الجمالية للتشبيه في معلقة امرىء القيس ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد 74 ، ج 2ص 499

[28] - حسن طبل ، المرجع السابق ،ص 38 .

[29]- ضيف الله م . ح . م ، نثر مصطفى صادق الرافعي ، دار ومكتبة الشركة الجزائرية ، (رسالة مطبوعة)، د ت ، ص 175

[30]- الرافعي ، رسائل الأحزان ، بيت الحكمة للنشر، الجزائر، ط1، 2012،ص27

[31] -الرافعي ، حديث القمر، بيت الحكمة للنشر، الجزائر، ط1، 2012،ص 9-10

[32] - الرافعي ، السحاب الأحمر، بيت الحكمة للنشر، الجزائر، ط1، 2012،ص 26

[33] - عبد العزيز عتيق ، علم البيان ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ، دط ، ،1975 ص،95

[34] - أبي الفتح عثمان بن جني ، الخصائص ، تح محمد علي النجار، دار الهدى ، بيروت ،ج1 ،ط2 ،ص 300

[35] - الرافعي ، أوراق الورد ، بيت الحكمة للنشر ، الجزائر ، ط1 2012 ص 22

[36] - أوراق الورد ، ص 42

[37] - حديث القمر ، ص 57

[38] - عبد العزيز عتيق ، علم البيان ، ص 105

[39] - رسائل الأحزان ، ص 17

[40] - السحاب الأحمر ، ص 14

[41] - أوراق الورد ، ص 22

[42] - أوراق الورد ، ص 73

[43] - رسائل الأحزان ، ص 36

[44] - عبد القاهر الجورجاني ، أسرار البلاغة في علم البيان ، ، وزارة المعارف ، ط 2 ، دت ص 87

[45] - السحاب ، ص 14

[46] - رسائل الأحزان ، ص 41

[47] - حديث القمر ، ص 22

[48] - أوراق الورد ، ص 43

[49] - أوراق الورد ، ص 45

المصادر و المراجع :

أ-المصادر:

1- القرآن الكريم .

2- مصطفى صادق الرافعي ، رسائل الأحزان ، بيت الحكمة للنشر ، الجزائر ، ط1 ،2012

3- مصطفى صادق الرافعي ، حديث القمر ، بيت الحكمة للنشر ، الجزائر ، ط1، 2012

4- مصطفى صادق الرافعي ، السحاب الأحمر ، بيت الحكمة للنشر ، الجزائر ، ط1، 2012

5- مصطفى صادق الرافعي، أوراق الورد ، بيت الحكمة للنشر ، الجزائر ، ط1 ،2012

ب -المراجع :

1- ا بن جني ، الخصائص ، تح محمد علي النجار ، دار الهدى ، بيروت ،ج1 ،ط2

2- ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر، بيروت : ط1 ،2000،

3- د .بشرى موسى صالح ، الصورة الشعرية في النقد العربي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت، لبنان ، ط19941

4- د، جابر أحمد عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي ، المركز الثقافي الغربي ، بيروت ط3 ،1992

5- الجاحظ ، الحيوان ، تح عبد السلام هارون ، ط2 ، 1965 ،ج 3

6- د جمعة محمد محمود شيخ روحه ، الصورة الفنية في مختارات البارودي (ملامحها و تطورها) ، مكتبة بستان المعرفة ، ط، 2008 ،ص4 .

7- الجورجاني ، أسرار البلاغة في علم البيان ، ، وزارة المعارف ، ط 2 ، دت

8- د حسن طبل ، الصورة البيانية في الموروث البلاغي ، مكتبة الإيمان بالمنصورة ، ط1،2005

9- د.خلدون سعيد صبح ،البنية الجمالية للتشبيه في معلقة امرىء القيس ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد 74 ، ج 2

10- خير الدين الزركلي ، معجم الأعلام ، دار العلم للملايين ، لبنان، ط15 ،2002 ، ج7

11- د زيد بن محمد بن غانم الجهني ، الصورة الفنية في المفضليات ، الجامعة الإسلامية، السعودية ، ط14251 هـ ص42

12- - السكاكي ، مفتاح العلوم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ،ط1987،2

13- ضيف الله م . ح . م ، نثر مصطفى صادق الرافعي ، دار ومكتبة الشركة الجزائرية ، (رسالة مطبوعة)، د ت

14- عبد العزيز عتيق ، علم البيان ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، دط ، ،1975

15- عبد القادر القط ، الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، مكتبة الشباب ،1988-

16- القزويني (الخطيب)، الإيضاح في علوم البلاغة ، تح عبد الحميد هنداوي ،مؤسسة المختار للنشر و للتوزيع ، القاهرة ط3،2007

17- كامل حسن البصير ، بناء الصورة الفنية في البيان العربي ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، العراق ، دط، 1987

18- لخميسي شرفي ، جمالية الصورة البلاغية في ديوان مقام البوح لعبد الله العشي ، مجلة قراءات ، جامعة بسكرة ، عدد 2011

19- عبد الفتاح لاشين ،البيان في ضوء أساليب القرآن ،دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1998 دط

20- مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، مكتبة الشروق الدولية ، ، مج1 ط4 ،2004

21- د .محمد حسن عبد الله ، الصورة و البناء الشعري ، دار المعارف ، القاهرة ، د ط ، دت

22- محمد حسين علي الصغير ، أصول البيان العربي في ضوء القرآن الكريم ،دار المؤرخ العربي ، لبنان ، ط1 ،1999

23- محمد سعيد العريان ، حياة الرافعي ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، ط3، 1955.